رواية عطيل

ترجم حضرة الكاتب الشاعر الشهير خليل افندي مطران رواية عطيل لشكسبير ؛ ومثّلها في تياترو الاوبرا الخديوية جوق جورج افندي ابيض نابغة التمثيل العربي . ثمّ تمنى جمهور الأدباء على المترجم الفاضل أن ينشر هذه الرواية بالطبع ، فصدّرها بمقدّمة بليغة درس فيها الشاعر الانكليزي وروايته هذه درساً جميلاً جدًّا فنقلناه عنهُ . والرواية لا تلبث ان تتداولها أيدي القراء . قال خليل :

ندَبني لتعريب هذه الرواية جورج افندي أبيض صاحب الفرقة (الجوق) المعروفة الآن باسمه ، فترددتُ زمناً ، ثم أتيح لي ان رأيتهُ يمثّل تجربة من «اديب» فأعجبني اتقانه واتقان بعض أعوانه واستخرتُ الله في نقل عُطَيل الى لغتنا الشريفة

فلأذكرْ أولاً ما دعاني الى اختيار اسم عطيل ردًّا على بعض المعترضين

كان عُطيل في زعم القصّاص الذي نقل عنهُ شكسبير اصل هذه الحكاية ، بدويًّا مغربيًّا جلا الى البندقية وخدم في جيشها حتى أصبح قائده الاكبر ، وعقيده في الملمّات . والمغاربة يومئذٍ خليط من العرب والبربر المستعربة . فامّا ان يكون قد دعي منذ مولده باسم افرنجي فغير محتمل ، وامّا ان يكون قد دعي باسم عربي حرّفته العجمة ، فهو الأصح عقلاً . فاذا رددنا أوتللو الى لسانهِ الاصلي ، فالذي يستخرج من حروفهِ أحد اثنين : عطاء الله او عُطيل . فأما عطاء الله فلم أتوصل الى تحقيق أن مغربيًّا واحداً سمّي بهِ ولهذا ضربتُ عنه صفحاً ، وأما عُطيل فقد اعتقدت انهُ الاخلق بالاختيار لسببين : أحدهما انهُ أشبه بما جرت عادة العرب على تسمية الزنوج بهِ من الفاظ التحبب امثال مسعود ومسرور وزيتون ومرجان للذكور ، وخيزران وضياء للجواري . ومعلوم ان عُطيلاً تصغير تحبّب لصفة عُطُل بمعنى عاطل اي خلوٌ من الحلية فتسمية احد الزنوج بهِ انما هي محاكاة صحيحة لاصطلاح العرب . وثانيهما لأن «عُطيل» بضمّ أوله ورفع آخره مع تخفيف التنوين أقرب الى أوتللو من كل اسم سواه

بقي في هذا الصدد ان أقول مروراً للذين تمنّوا لو أبقيت اسم أوتللو كما أورده المؤلف ، انني لم اوافقهم على هذا لانني كرهت ان أُثبت في العربية اسماً من أسمائها على الرطانة التي حرّفتهُ اليها العجمة لغير ما سبب سوى الشهرة التي اكتسبها على تلك الصورة ، في حين انهُ لا يتعذّر علينا اكسابهُ مثلها وهو مردود الى اصله التقديري او التحقيقي من غير ان نسوم مسامعنا جراحة تحريفهِ . ذلك ما اوحى اليَّ اليقين أنهُ خير وأولى

بعد هذا التفسير الذي تقاضتني اياه بعض الصحف ، ونفر من الاصدقاء ، ارجع الى الرواية ولي فيها مبحثان موجزان ، من جهة الاصل ، ومن جهة التعريب

* * *

اما من جهة الاصل فأقول ان واضع هذه الرواية انما هو نابغة الادهار في فنهِ وأعني بهِ شكسبير . وضعها لاظهار الغيرة وتأثيرها في الرجل بأقوى وأصدق ما دلَّ عليهِ الاختبار من أمرها ، ولذلك اختار عاشقاً افريقياً بدوي الفطرة — ليكون وثّاب الشعور عنيفهُ — عسكريَّ المهنة — ليكون سريع التصديق والانخداع — مكتهلاً أي في أوّل الانحدار من سنّ الاربعين — ليكون أشدّ في التعشق كما هي شيمة أمثاله ممن يسطو عليهم الحب بعد انقضاء الشباب وليكون ايضاً في الحالة التي يتهم فيها الانسان نفسه بفقدان اكثر الصفات التي يقتضيها الغرام ولا سيما حيثما يكون المستهام اسود البشرة من احلاس الحروب ، والمستهام بها بيضاء منعمة من قوم فسدة الاخلاق مترفين

ذلك هو الغرض الأساسي العام الذي رمى اليهِ شكسبير فأصاب بهِ دقائق الحقائق اصابة كانت في جملة ما حمل أكابر المفكرين وأعاظم الكتبة على الشهادة له بأنهُ أخبر خبير بخفايا القلوب ، وأمهر كشاف لخباياها

ثم انهُ أدار حول هذا المحور غرضين ثانيين : أحدهما اثبات أن العفة لا تنتفي من مدينة مهما فسقت بل قد تزداد تمكناً من نفس المرأة المتحصنة بمقدار ما تندر العفة بين جيرتها وفي عشيرتها ، والثاني تبيين الاحتيال ونهاية ما يبلغهُ من نفس رجل

ذكي مطاع خسيس أصمّ الضمير ، مستبيح كل محرم ، مستهين كل منكر في سبيل غايته

كيف صرف شكسبير قريحته العجيبة في ألوف الجزئيات التي تؤدّي الى تصوير الغرض الكلي والغرضين الملحقين به ؟ ذلك ما يقف عليه القارىء من مجرّد مطالعته للرواية فانهُ يشعر قليلاً قليلاً ان الأسماء تمحى وتستبدل بأشخاص مقوّمين في أصلح تقويم لكل منهم ويدخل متدرّجاً من الوهم في الحقيقة فيرى وهو يسمع ويسمع وهو شاهد مشاهد مما ألفهُ في الحياة لا يردّه الى كونهِ قارئاً سوى انتهائهِ الى دفة الكتاب

ومن جهة هذا التصوير الأخّاذ الذي يصوّر بهِ شكسبير الحقيقة رأى بعض جهابذة النقاد ان ذلك الاستاذ العظيم يبالغ فيهِ مبالغة قد يجاوز معها الحدود التي يرسمها الفن . صدقوا ولكن هل كانت عبقرية هذا الرجل لتحد بحدود ، وهل مثل العقل الذي رزقهُ كان مما يقيد بقيود ؟

الشاعر الذي « افتتن فكتور هوجو » بغرابة شعره ، ووجد عند فراسته وطلاقته وقوّة تمثيله للمعنويات بالحسيات ، مبدأ المذهب الحرّ الذي ذهب اليهِ فيما بعد هو وأضرابه وأصبح سنّة الكتاب في العالمين

الكاتب المنقّب المتعمق في مظاهر الخلائق ومضمراتها مع قدرة على المحاكاة ومهارة في الاختيار وبراعة في التأليف وسلطة على اللفظ يستدني بهِ أبعد المعاني ويقيد أوابد الوجدانات ، الذي اعجب بهِ المؤرخ الفيلسوف « تاين » وناهيك بألوف المعجبين غيره من قبله ومن بعده

الأديب الذي تترجم مكتوباته على وفرتها الى كل لغات الدنيا ، وفي بعض اللغات كالفرنسوية تكثر تلك الترجمات وتتنوع ويجيز احاسنها المجمع الأدبي الاكبر كما اجيزت ترجمة « مونتيجو » و « ليتورنور » وغيرهما فتطلع الأمم المختلفة الالسنة والاجناس والاذواق والملل والنحل على مكتوباتهِ سواء في اصلها او في غير اصلها ، وتقرّها في أعلى منزلة عندها لجمعهـا المُذهِب والمطرب الى المضحك والمفيد والمبكي والمضحك الى الزاجر والمؤنس

أهذا الذي يطلب منهُ ان يكون اسير اصطلاح وعبد لفظة ورقيق أوضاع سبق الاتفاق عليها

خرج شكسبير عن ذلك الطوق ونعمَّا فعل . ولو أبقاه في عنقهِ لما اشرأبَّ صعداً الى مناجاة اجرام السماء ، ولا أطاق الإِكباب الى أبعد اغوار الاسرار في الطبائع البشرية

من ذلك المنجم العظيم نجمت « عطيل » وهي احدى آيات مستخرجاته ولما كنت اعهده فيها من نادر المزايا وجدتُ من كافي بها معواناً على معاناة تعريبها

* * *

فأما من جهة التعريب فأقول ان في نفس شكسبير شيئاً عربياً بلا منازعة وهو أبين فيها مما بان في نفس فكتور هوجو . أقرأ لغتنا ام نقلت اليهِ عنها بعض المترجمات الصحيحة ؟ لا اعلم . ولكن بينه و بيننا من وجوه متعددة مشاكلة محيرة ، فان عنده مثلما عندنا جرأة على الاستعارة وذهاباً بضروبها في كل مذهب ، وله مثل ما لنا كلفٌ بالتنقل الوثبي من غير تمهيد ولا استئذان يدفعك من القصد الى القصد وشبكاً وعليك ان تتمهل في فكرك وتجد الرابطة ، و بهِ مثل ما بنا من الهيام في المبالغة التي لا يقبلها من الكاتبين ولا يعقلها من القارئين الاَّ الذين في تصوُّرهم حدَّة وجماح كما يكون عادة عند الشرقيين وخصوصاً عند العرب . وعلى الجملة ففي كل ما يكتبهُ شكسبير شيء من روح البداوة قوامه الرجوع الدائم الى الفطرة الحرة

تناولتُ الرواية لأعرّبها وكأني أنوي ردّها الى اصلها كما رددتُ اسم عطيل وقبل ان أشرع فيها تفكرت في الأسلوب الذي اختاره لها

أهو ذلك الاسلوب المخرّق الذي تشف الفصاحة فيهِ عن رقع العامية ؟ لا وألفاً لا

فتالله لو ملكتُ تلك العامية لقتلتها بلا أسف ولم اكن بقتلي اياها الاَّ متقماً لمجد فوق كل مجد ، نزلتْ من هيكله الذهبي الخالص الرنان منزلة الرجلين الخزفيتين القذرتين فهو فوقهما متداعٍ وبهما مشوَّه ، منتقماً لأمة كسرت العامية وحدتها وكانت عليها اكبر معوان للتصاريف التي مزَّقتها في الشرق والغرب كل ممزق ،

منتقماً للفصاحة نفسها وأية فصاحة في خُشَارة لا تصيب فيهـا ثبر الاصل الاَّ وقد تلوَّثت بذريرات لا تحصى من أوضار الرطانات بأنواعها

بُعداً لهذا الاسلوب اذن ! ولنختر غيره . . . أنؤثر الاسلوب الجزل المتين القديم ؟

لا ولا ! لأن الروايات انما تكتب ليفهمها القوم ويستفيدوا منهـا مغزى بجانب التفكهة . أفنعكس عليهم تلك السنَّة الشريفة التي سنها النبي القرشي بقوله أمرتُ ان اخاطب الناس على قدر عقولهم

بعد هذا وذاك لم يبقَ الاَّ الاسلوب الوسط وهو الذي تكون بمقتضاه الالفاظ كلها فصيحة لكن سهلة ، وتفكك الجمل تفكيكاً يقرّب مراداتها من الافهام بمحاكاته لفنون المحادثات المستجدة من غير ان يفوتنا الالتفات في ذلك التفكيك الى اشتات ما صنع ادباء العرب من مثله لمناسبات مخصوصة وان لم يألفهُ جمهور الكتَّاب الاحتفاليين

هذا هو الاسلوب الذي آثرتهُ وأرجو ان اكون قد وفقت فيهِ بعض التوفيق فتجتمع معه لهذه الرواية مزيتان : احداهما انها تكون عربية فصيحة لولا الاعلام ولولا تشقيق الكلام على ترتيب المخاطبة بين الفرنجة قديماً وحديثا ، والثانية انها تمثل أقوال شكسبير حرفاً بحرف ولفظةً بلفظة مع مراعاة انطباق كل منها على الاصطلاح الديني او الاجتماعي الذي لها عند القوم الممثَّلين فيصحُّ ان تكون هذه التجربة مثالاً للتعريب يتحداه طلبة المدارس

خليل مطران

نوابغ مصر الادباء

لا تزال رسائل القراء ترد علينا بكثرة رداً على اقتراحنا الذى نشرناه فى الجزء السابق فرأينا والحالة هذه ان نرجىء نشر النتيجة الى الجزء الآتى